المبحث الثالث:

الوسطية في العقائد والعبادات والمعاملات

- **الإسلام دين الوسطية:**

من الحقائق والمسلَّمات لدى ذوي البصائر والحِجا أنه بقدر تمسّك الأمم بمميِّزاتها الحضارية والتزام المجتمعات بثوابتها وخصائصها القيمية؛ بقدر ما تحقق الأمجاد التاريخية والعطاءات الإنسانية. ولئن برزت في عالمنا المعاصر صور وظواهر من الانحرافات تهدد الأمن الدولي وتعرّض للخطر وعدم استقرار السلامَ العالمي فإن مَردّ ذلك إلى التفريط في المبادئ الحضارية والتهاون بالمثل والقيم الإنسانية.

ومن يجيل النظر في جوانب عظمة هذا الدين الذي أكرمنا الله به وهدانا إليه يجد أن هناك سمة بارزةً وميزةً ظاهرةً كانت سبباً في تبوء هذه الأمة مكانتها المرموقة بين الأمم، ومنحِها مؤهلات القيادة والريادة للبشرية، ومقومات الشهادة على الناس كافة.

إنها سمة الاعتدال والوسطية التي تُجلّي صور سماحة الإسلام وتبرز محاسن هذا الدين ورعايته للمثل الأخلاقية العليا والقيم الإنسانية الكبرى، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة:١٤٣].

ولما كان من الضرورة بمكان تحديد هذا المصطلح على ضوء المصادر الشرعية منعاً للخطأ في المفاهيم واللبس في التصور، وحتى نقف على حقيقة الوسطية ومجالاتها لنُظهر الصورة المشرقة لسماحة هذا الدين، في الوقت الذي اشتدت فيه الحملة على الإسلام، ورُمي أتباعه بمصطلحات موهومة وألفاظ مغرضة لتشويه صورته والتنفير

منه، تَصيُّداً لأخطاء بعض المنتسبين إليه، في زمن انقلبت فيه الحقائق، وانتكست فيه المقاييس، وبُلي بعض أهل الإسلام بمجانبة هذا المنهج الوضاء، فعاشوا حياة الإفراط أو التفريط، وسلكوا مسالك الغلو أو الجفاء، ودين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه، والمنبتّ لا أرضًا قطع ولا ظهراً أبقى.

■ **ما هو مفهوم الوسطية في الإسلام؟**

لقد عُني علماء الإسلام ببيان حقيقة الوسطية الواردة في سورة البقرة وهي لا تخرج عن معنيين مشهورين يؤديان معنى واحداً:

➢ **أولهما**: ﴿وَسَطاً﴾ أي: خيارا عدولاً، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ [القلم:٢٨]. وقول الأول: هُمُ وسطٌ يرضى الأنام بحكمهم.[1]

وهو قول جمهور المفسرين، والذي رجحه الإمامان الحافظان ابن جرير وابن كثير رحمهما الله.

➢ **والثاني**: أنهم وسطٌ بين طرفي الإفراط والتفريط، جاء هذا في سياق الامتنان على هذه الأمة المحمدية.

والوسطية منهج سلف هذه الأمة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: [فإن الفرقة الناجية أهلَ السنة والجماعة يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، بل هم وسط في فِرق الأمة، كما أن الأمة هي الوسط في الأمم][2].

---

(١) ذكر البيت الجاحظ في البيان والتبيين ص (٤٩٧) عن شاعر يسمى أبا نُخيلة.

(٢) مجموع الفتاوى(٣/ ٣٦٨).

ويقول الإمام الشاطبي رحمه الله: [إن الشريعة جارية في التكليف لمقتضاها على الطريق الأوسط الأعدل الآخذِ من الطرفين بقسط لا ميل فيه، فإذا نظرت إلى كلية شرعية فتأملها تجدها حاملةً على التوسط والاعتدال، ورأيت التوسط فيها لائحاً، ومسلك الاعتدال واضحاً، وهو الأصل الذي يُرجع إليه، والمعقِل الذي يُلجأ إليه][1].

ويقول الإمام العز بن عبد السلام[2] رحمه الله: [وعلى الجملة فالأولى بالمرء أن لا يأتي من أقواله وأعماله إلا بما فيه جلب مصلحة أو درء مفسدة، مع الاعتقاد المتوسط بين الغلو والتقصير][3].

ويقول الإمام العلامة ابن القيم رحمه الله: [ما من أمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى غلو، وإما إلى تقصير، والحق وسط بين ذلك][4].

---

(١) الموافقات للشاطبي (٢/ ٦٣).

(٢) عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، عز الدين الملقب بسلطان العلماء: فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهاد. ولد ونشأ في دمشق. وزار بغداد سنة ٥٩٩ هـ، فأقام شهراً. وعاد إلى دمشق، فتولى الخطابة والتدريس بزاوية الغزالي، ثم الخطابة بالجامع الأموي. ولما سلم الصالح إسماعيل ابن العادل قلعة صفد للفرنج اختياراً أنكر عليه ابن عبد السلام ولم يَدْعُ له في الخطبة، فغضب وحبسه. ثم أطلقه فخرج إلى مصر، فولاه صاحبها الصالح نجم الدين أيوب القضاء والخطابة ومكنه من الأمر والنهي. ثم اعتزل ولزم بيته. وتوفي بالقاهرة سنة ٦٦٠هـ. فوات الوفيات: ١/ ٢٨٧ وطبقات السبكي: ٥/ ٨٠ والنجوم الزاهرة: ٧/ ٢٠٨ وعلماء بغداد: ١٠٤ ومفتاح السعادة: ٢/ ٢١٢ .

(٣) قواعد الأحكام (٢/ ١٧٨).

(٤) الوابل الصيب (٢/ ٣٦٧).

○ ماذا يراد بالوسطية في العصر الراهن؟

لقد أصبح لفظ الوسطية متداولاً بصورة واسعة، واستعمله كثير ممن ينسبون إلى الفكر الإسلامي والسياسة والعلم الشرعي وأصبح شأنه كشأن كثير من المصطلحات التي لا اتفاق حول مدلولها، يعطيه كُل معنى مغاير لما يعطيه الآخر ولما كان لفظ الوسطية يطلق ويراد به المنهج والشرعة والدين، أو يطلق ويراد به تيار مخصوص من تيارات الأمة، أصبح لزاماً على من يستعملون هذا اللفظ الحادث أن يعلموا ماذا يريدون منه، وماذا يريدون به؟

يقول عنه د. فهمي هويدي[1]: (إن مصطلح الوسطية من المصطلحات التي عدت عليها العاديات وجارت عليها النائبات فأخرجتها عن معناها الإسلامي الأصيل وأبعدتها عن كونها أخص خصائص منهج الإسلام في الفكر والحياة والنظر والممارسة والتطبيق والقيم والمعايير والأصول.. إلى معان أبعدت النجعة عن فحواها وخالفت أصل مسماها وما عادت تمت إلى الوسطية بصلة، ولا تتعلق فيها بسبب)[2]. ويمكنني أن أحصر الحديث حول الوسطية لبيان حقيقة مرادها بصيغة التساؤل لا البيان والتبيين؛ إذ الموضع لا يحتمل التفصيل الكثير في هذه المسألة على أهميتها بالنقاط التالية:

١- هل الوسطية لفظ يراد به الإسلام الحق والحنيفية السمحة والشرعة والمنهج الذي بعث به الرسول صلى الله عليه وسلم؟

---

(١) عالم ومفكر وأديب وصحفي بارز في مصر، وهو أستاذ في جامعة القاهرة للعلوم الإسلامية، من مؤلفاته: المقالات المحظورة.

(٢) المقالات المحظورة: فهمي هويدي – دار الشروق، مصر، ص ٨٣.

أم هو لفظ يراد به الدلالة على منحى خاص؟ ومجموعة مخصوصة من أمة الإسلام اختاروا من عقائده وأحكامه ما رأوا أنه الدين الوسط واعتقاد الفرقة الناجية فيكون بذلك لفظ الوسطية كلفظ «أهل السنة والجماعة» والسلفية والفرقة الناجية ونحو ذلك؟

٢- هل لهذه «الوسطية» اليوم مرجعية دينية يرجع إليها؟ وتحكم على أن هذا المعتقد أو العبادة أو العمل داخل في معنى الوسطية أو خارج عنها؟ وأين هذا المرجع كتاباً أو إماما أو شيخاً؟ قد يقال الحنفية أو الشافعية فيعلم بذلك منهج ومذهب، يقال الأشعرية، والمعتزلة فيعلم منهج في الاعتقاد والعمل، والآن إذا قيل الوسطية فماذا يعني ذلك من الدين: عقيدة وشريعة؟!

٣- إذا كان اللفظ – ولم يمض على تداوله إلا عقد واحد من الزمان أو يزيد قليلاً- أصبح يتكلم فيه أصناف شتى من الناس، وكل يخرج بمفهوم في العقيدة والعمل غير ما يعرضه الآخر، ومنهم من بات يخصص«الوسطية» فيقول الوسطية المستبصرة..

٤- عندما يطلق بعض الناس لفظ الوسطية ويريدون بها حسب قولهم الإسلام المعتدل فإن هذا يعني أن هناك إسلاماً غير معتدل عند بعض الناس، فما هو هذا الإسلام الشاذ وغير المعتدل؟ وما ملامح هذا الإسلام الوسط؟! وهذا سيحتاج إلى بيان معنى الوسطية في العقائد والعبادات والمعاملات.. والشرعة والمنهج، وإلى بيان الخارجين عن هذه الوسطية وسيكون هذا تصنيفاً جديداً لأهل الإسلام يضاف إلى التصانيف السابقة في مسميات الفرق والعقائد..

لذلك نحصر كل ما سبق بالقول: «الوسطية» إحدى الخصائص العامة للإسلام، وهي إحدى المعالم الأساسية التي ميز الله بها أمته عن غيرها ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فهي أمة العدل والاعتدال، التي تشهد في الدنيا والآخرة على كل انحراف يمينا أو شمالاً عن خط الوسط المستقيم. والنصوص الإسلامية تدعو إلى الاعتدال، وتحذر من التطرف، الذي يعبر عنه في لسان الشرع بعدة ألفاظ منها:

(الغلو) و**(التنطع)** و**(التشدد)**.

والواقع أن الذي ينظر في هذه النصوص يتبين بوضوح أن الإسلام ينفر أشد النفور من هذا التطرف، ويحذر منه أشد التحذير. وحسبنا أن نقرأ هذه الأحاديث الكريمة، لنعلم إلى أي حد ينهى الإسلام عن التطرف، ويخوف من مغبته.

وقد قاوم النبي صلى الله عليه وسلم كل اتجاه ينزع إلى التطرف والغلو في التدين، وأنكر على من بالغ من أصحابه في التعبد والتقشف، مبالغة تخرجه عن حد الاعتدال الذي جاء به الإسلام، ووازن به بين الروحية والمادية، ووفق بفضله بين الدين والدنيا، وبين حظ النفس من الحياة وحق الرب في العبادة، والتي خلق لها الإنسان. فقد شرع الإسلام من العبادات ما يزكي نفس الفرد، ويرقى به روحياً ومادياً، وما ينهض بالجماعة كلها، ويقيمها على أساس من الأخوة والتكافل، دون أن يعطل مهمة الإنسان في عمارة الأرض فالصلاة والزكاة والصيام والحج، عبادات فردية واجتماعية في نفس الوقت، فهي لا تعزل المسلم عن الحياة ولا عن المجتمع، بل تزيده ارتباطاً به، شعورياً وعملياً، ومن هنا لم يشرع الإسلام «الرهبانية» التي تفرض على الإنسان العزلة عن

الحياة وطيباتها، والعمل لتنميتها وترقيتها، بل يعتبر الأرض كلها محراباً كبيراً للمؤمن، ويعتبر العمل فيها عبادةً وجهاداً، إذا صحت فيه النية، والتزمت حدود الله تعالى.

ولا يقر ما دعت إليه الديانات والفلسفات والأخرى من إهمال الحياة المادية لأجل الحياة الروحية، ومن حرمان البدن وتعذيبه حتى تصفو الروح وترقى، ومن إهدار شأن الدنيا من أجل الآخرة، فقد جاء بالتوازن في هذا كله ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١]، «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي»(١)، «إن لبدنك عليك حقاً»(٢).

لقد أنكر القرآن، بل شدد الإنكار، على أصحاب هذه النزعة في تحريم الطيبات والزينة التي أخرج الله لعباده، فقال تعالى في القرآن المكي: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣١ – ٣٢].

وفي القرآن المدني يخاطب الجماعة المؤمنة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُواْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٧-٨٨].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه في الإيمان برقم ٣٥٨.

(٢) متفق عليه، البخاري ٣/ ٣٦٦، ومسلم ٤/ ٨٨.

وهاتان الآيتان الكريمتان تبينان للجماعة المؤمنة حقيقة منهج الإسلام في التمتع بالطيبات، ومقاومة التطرف والغلو الذي وجد في بعض الأديان.

▪ **مجالات الوسطية في الإسلام في مجال العقائد:**

وتتجلّى وسطية الإسلام في مجالاته كلها، ففي مجال الاعتقاد جاء الإسلام وسطاً بين الملل، فلا إلحاد ولا وثنية، بل عبودية خالصة لله في الربوبية والألوهية، وكذا في الأسماء والصفات وسط بين أهل التشبيه والتمثيل والتحريف والتعطيل. وفي القضاء والقدر وسط بين نفاة القدر والمغالين فيه القائلين: إن العبد مجبور على فعله. وفي مسألة الإيمان وسطٌ بين من جفوا فأخروا الأعمال وأرجؤوها عن مسمّى الإيمان وبين من غلوا فأخرجوا من دائرة الإيمان من عمل بعض المعاصي.

ويُلحَق بذلك الحكم بالتكفير، فأهل الحق لا يكفِّرون بالذنوب ما لم تُستحلّ، كما لم يجعلوا المذنب كامل الإيمان، بل هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته. وفي باب النبوة والولاية والصحابة توسطٌ فلا غلو فيهم غلوَّ من اتخذهم أربابا من دون الله، ولا جفاء كما جفت اليهود ففريقا كذبوا وفريقا يقتلون، وأهل الإسلام الحق يتوسطون، فيؤمنون بجميع رسل الله عليهم الصلاة والسلام، وجميع كتبه، ويحبون أولياءه، ويترضون عن جميع صحابته رضي الله عنهم وأرضاهم.

▪ **مجالات الوسطية في الإسلام في العبادات:**

وثمَّت مجال آخر تتألّق فيه وسطية هذه الأمة، في مجال العبادة ومراعاة مقتضيات الفطرة والتناسق البديع بين متطلبات الروح والجسد، بلا غلو في التجرّد الروحي، ولا في الارتكاس المادي، فلا رهبانية ولا مادية، بل تناسق واعتدال، على ضوء قول الحق

تبارك وتعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَا ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص:٧٧].

وقد ردّ رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون[1] التبتُّل، وأنكر على من حَرّم على نفسه طيبات الدنيا قائلاً: «أما إني أخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[2] مخرج في الصحيحين.

وعند مسلم وغيره: (هلك المتنطعون)، وعنده أيضاً: «إن هذا الدين يُسر، فأوغلوا فيه برفق، ولن يُشادّ الدينَ أحد إلا غلبه»[3].

وهكذا نأى الإسلام بأتباعه عن كل الكبوات والنبوات والهزات والهفوات التي تُخِلُّ بغاية الوجود الإنساني، وتضيِّع حقوق الإنسان، وتفرط في تحقيق التوازن بين متطلبات روحه وجسده، (حيث تأرجحت كثير من النظم المادية كما هو ظاهر في المدنية الغربية التي تنطلق من نظرات ومقتضيات مادية صِرفة، حتى تَنَادى عقلاؤهم ومنصفوهم بالحاجة إلى دين يحقق التوازن بين الرغبات والتناسق بين المتطلبات،

---

(١) عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب الجمحي، أبو السائب: صحابي، كان من حكماء العرب في الجاهلية، يحرم الخمر. وأسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً، وهاجر إلى أرض الحبشة مرتين. وشهد بدراً. ولما مات جاءه النبي صلى الله عليه وسلم فقبله ميتاً، حتى رؤيت دموعه تسيل على خد عثمان. وهو أول من مات بالمدينة من المهاجرين وأول من دفن بالبقيع منهم، كانت وفاته سنة(٢هـ). ابن سعد ٣: ٢٨٦ والإصابة: ت ٥٤٥٥ وصفة الصفوة ١: ١٧٨

(٢) أخرجه البخاري في النكاح باب الترغيب في النكاح برقم(٤٧٧٦).

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان، باب الدين يسر، برقم (٣٩).

ويرتفع بالبشرية إلى مستوى إنسانيتها وتحقيق قيمها ومثلها، وينتشلها مما تعاني منه من بؤس وطغيان وشقاء)[1].

ومن المجالات المهمة التي تبرز فيها وسطية هذه الأمة ما يتعلّق بالتشريع والتحليل والتحريم، ومناهج النظر والاستدلال، فتوسطت الشريعة في هذه المجالات بين اليهود الذين حُرِّم عليهم كثير من الطيبات وبين قوم استحلوا حتى المحرمات.

والحكم بالتحليل والتحريم حق الله سبحانه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لله﴾ [الأنعام:٥٧]، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله ٱلَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف:٣٢].

وفي منهج النظر والاستنباط وازن الإسلام بين مصادر التلقي والمعرفة، ووافق بين صحيح المنقول وصريح المعقول، وعالم الغيب والشهادة، وإعمال النصوص، ورعاية المقاصد، واستجلاء القواعد، وحِكم الشريعة وأسرارها، ووازن بين تحقيق المصالح ودرء المفاسد[2].

*** ويمكن أن نشير إلى بعض هذه المجالات والمظاهر في العبادات الآتية:**

أ - في الطهارة:

يظهر مبدأ اليسر والمسامحة في الطهارة واضحاً لأنه المدخل إلى العبادات، واليسر فيها أمر ضروري، لأن المسلم يتوضأ في اليوم والليلة خمس مرات، ويغتسل من الجنابة

---

(١) الإسلام منهج ودولة، عبد الله عبد المجيد طهماز، ص ٢٣٦، دار البيان، أبوظبي.

(٢) الإسلام منهج ودولة، عبد الله عبد المجيد طهماز، ص ٢٣٧.

كذلك، ويتعرض لبعض النجاسات هنا وهناك، فإن الشدة في الطهارة توقعه في الضيق والحرج ويجعل نفسه تمل من العبادة نفسها فضلاً عن الطهارة، كما هي حال كثير من المصابين بالوسوسة أثناء الوضوء أو الطهارة أو وقوع بعض النجاسات على الثوب وغيرها، وهذا ما نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو جزء من سماحة هذا الدين ويسره، وفضل من الله -تعالى- على عباده ليندفعوا نحو الطاعة وأداء العبادات بالصورة المطلوبة، حيث يقول عليه الصلاة والسلام في طهارة الماء: «إن الماء لا ينجسه شيء إلا ما غلب على ريحه وطعمه ولونه»[1].

ويقول عليه الصلاة والسلام عن ماء البحر: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»[2].

ويتبين يسر هذا الدين في الطهارة من قصة الأعرابي الذي بال في المسجد فقام الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دعوه وهريقوا على بوله سَجْلا من ماء أو ذَنوبًا من ماء، فإنما بُعثتم ميسِّرين ولم تُبعثوا معسِّرين»[3]، ومن اليسر في الطهارة أيضاً إذا تعلقت قذارة بالنعلين فإن مسحهما بالأرض يطهرهما لقوله عليه

---

(١) الترمذي الطهارة ٦٥، النسائي المياه ٣٢٥، أبو داود الطهارة ٦٨، ابن ماجه الطهارة وسننها ٣٧٠، أحمد ١ / ٣٠٨، الدارمي الطهارة.

(٢) الترمذي الطهارة ٦٩، النسائي المياه ٣٣٢، أبو داود الطهارة ٨٣، ابن ماجه الطهارة وسننها ٣٨٦، أحمد ٢ / ٣٦١، مالك الطهارة ٤٣، الدارمي الطهارة.

(٣) البخاري الوضوء ٢١٧، الترمذي الطهارة ١٤٧، النسائي الطهارة ٥٦، أبو داود الطهارة ٣٨٠، ابن ماجه الطهارة وسننها ٥٢٩، أحمد ٥٠٣ .

الصلاة والسلام: «إذا جاء أحدكم إلى المسجد فلينظر فإن رأى في نعليه قذراً أو أذىً فليمسحه وليصل فيهما»(١)، ومن يسر هذا الدين في الطهارة أن النجاسة الواقعة على الثوب تزال بالماء وهذا فيه يسر كبير إذا قورن بما كانت عليه بنو إسرائيل من قبل حيث كانوا يكلفون بقص ما أصيب بالنجاسة من الثوب، وصور اليسر والسماحة في التطهير، لا نستطيع حصرها في هذا المقام.

ب - في التيمم:

ومن اليسر في هذا الدين أن المسلم إذا لم يجد ماء ليتوضأ به أو كان به مرض أو جرح لا يستطيع أن يتوضأ بالماء، فله أن يتيمم بالتراب، فضلا من الله تعالى وتسهيلاً عليه، لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٦]، بخلاف ما كانت عليه الشرائع السابقة، حيث لا تقبل صلاة من غير تطهر بالماء.

وجاء تأكيد هذا الأمر في السنة النبوية في قوله عليه الصلاة والسلام: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»(٢).

---

(١) أبو داود الصلاة ٦٥٠، أحمد ٣/ ٢٠، الدارمي الصلاة ١٣٧٨ .

(٢) البخاري، التيمم ٣٢٨، مسلم، المساجد ومواضع الصلاة ٥٢١.

ج - في الصلاة:

* ويمكن بيان بعض صور التيسير في الصلاة من خلال النقاط الآتية:

- إن فرضيتها خمس مرات في اليوم والليلة، فلا تأخذ وقتاً طويلاً، ولا تشغل الإنسان عن أداء أعماله اليومية، وإنما هي لقاءات مع الله تعالى يجدد فيها المؤمن العهد مع ربه على الطاعة والاستقامة والصلاح، وقد فرضت في البداية خمسين صلاة عند المعراج بالنبي صلى الله عليه وسلم، ثم صارت خمس صلوات بأجر خمسين صلاة، وفي ذلك سماحة ورحمة.

- مشروعية الجمع والقصر في الصلاة أثناء السفر أو المطر أو المرض، وذلك للظروف التي يمر بها الإنسان في هذه الحالات من قلة في الماء أو البرد أو خوف من الطريق أو زيادة في المرض، لذلك جعل الإسلام فيه الصلاة بشكل آخر يتناسب مع هذه الظروف فأجاز له الجمع والقصر، حيث قصرت الصلوات الرباعية إلى ركعتين فقط.

عن جابر بن عبد الله[1] رضي الله عنه قال: «أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبوك عشرين يومًا يقصر الصلاة»[2].

---

(١) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري السلمي: صحابي، من المكثرين في الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه جماعة من الصحابة. له ولأبيه صحبة. غزا تسع عشرة غزوة. وكانت له في أواخر أيامه حلقة في المسجد النبوي يؤخذ عنه العلم. روى له البخاري ومسلم وغيرهما ١٥٤٠ حديثاً. توفي سنة ٧٨هـ. الإصابة: ١/ ٢١٣ وتهذيب الأسماء: ١/ ١٤٢.

(٢) مسند أحمد، رقم١٤١٨٦، ص ٩٩٠ ،ورواه أبو داود في سننه برقم١٢٣٥، ص١٨٣ - ١٨٤.

ويتغير وضع الصلاة وكيفيتها كذلك في حالة الخوف في الحرب أو هجوم سبع أو سيل أو نحوه، ويسهل أمرها وتقصر، لما في ذلك من مصلحة على المسلمين وحماية لهم من عدوهم الذين قد يغدرون بهم أثناء الصلاة، وتسمى هذه الصلاة بصلاة الخوف، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً﴾ [النساء:١٠١]. ثم ذكرت في الآية الآتية كيفية أداء هذه الصلاة على دفعتين.

وهناك أحاديث وشواهد كثيرة بشأن قصر الصلاة، وذلك لوجود ظروف يصعب معها القيام بأداء هذه الصلوات كما هي في الأحوال الطبيعية.

- جواز الصلاة في أي مكان من الأرض، حيث لم تكن جائزة عند الأمم السابقة إلا في المعابد والصوامع، يقول عليه الصلاة والسلام: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[1].

- تخفيف الصلاة وعدم الإطالة فيها، لأن صلاة الجماعة تجمع بين الصغير والكبير والمريض، فينبغي مراعاة ذلك، وهذا ما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يحذر أصحابه منه، يقول جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه: «أقبل رجل بناضحين وقد جنح الليل فوافق معاذاً يصلي فترك ناضحه وأقبل إلى معاذ فقرأ بسورة البقرة أو النساء فانطلق الرجل وبلغه أن معاذاً نال منه فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فشكا إليه

---

(١) تقدم تخريجه قريباً.

معاذاً فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا معاذ، أفتان أنت أو أفاتن ثلاث مرار فلولا صليت بسبح اسم ربك والشمس وضحاها والليل إذا يغشى فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة»[1].

ويقول عليه الصلاة والسلام: «إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطوّل فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوّز في صلاتي، كراهية أن أشق على أمه»[2].

- رفعت الصلاة عن الحائض والنفساء، ولا تقضى بعد الطهر، وهذا يسر ولطف على المرأة، حيث تعاني في فترة الحيض والنفاس آلاماً ودماء، يصعب معها الصلاة، وقد تطول هذه المدة فيشق القضاء، فجاءت الرحمة الربانية على المرأة بهذا التيسير، ولم يطلب منها قضاء تلك الصلوات الفائتة عنها بعد ذلك.

- مشروعية سجود السهو لجبر الخلل الذي يحصل في الصلاة، ولم تطلب إعادتها.

كل هذا اليسر وهذه السماحة جاءت في الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين وهو الصلاة التي هي أعظم الأعمال العملية، وفي هذا شاهد كبير ودليل ناصع على يسر هذا الدين وسماحته في العبادات.

---

(١) البخاري الأذان ٦٧٣، مسلم الصلاة ٤٦٥، النسائي الإمامة ٨٣٥، أبو داود الصلاة ٧٩٠، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها ٩٨٦، أحمد ٣ / ٣٠٨، الدارمي الصلاة ١٢٩٦ .

(٢) البخاري الأذان ٦٧٥، النسائي الإمامة ٨٢٥، أبو داود الصلاة ٧٨٩، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها ٩٩١، أحمد ٣٠٥ .

د - في الزكاة:

*** وتتبين مظاهر اليسر والتسهيل في أداء فريضة الزكاة من خلال الأمور الآتية:**

- أنها لم تأت على جميع الممتلكات والعقارات والأموال، وإنما اقتصرت على بعض الأصناف مثل: بهيمة الأنعام، والأثمان، والزروع، وعروض التجارة.

- ثم إنه يشترط في الأصناف التي تجب فيها الزكاة أن تبلغ النصاب، وهي في الفضة مائتي درهم، وفي الذهب عشرون مثقالاً، وسائمة الإبل عن خمس، والبقر عن ثلاثين، والغنم عن أربعين، والحبوب والزروع والثمار عن خمسة أوسق. وقد أوضحت ذلك الأحاديث الكثيرة.

- ومن يسر الإسلام أيضاً في أداء هذه الفريضة أنه لم يجعل دفع الزكاة إلا مرة واحدة في السنة، وذلك بعد أن يحول عليه الحول.

- ومن ذلك أن مقدار المال الواجب دفعه للزكاة قليل جدّاً بالنسبة للمال الذي يوجب فيه الزكاة، بحيث لا يؤثر فيه كثيراً، ولا يتأثر بذلك صاحبه.

هذا فضلا عن كيفية تعامل الإسلام مع زكاة الزروع، حيث أوجب العشر في التي تسقى بماء المطر، ونصف العشر بالتي تسقى بالنضح والآبار، لقوله صلى الله عليه وسلم: «فيما سقت السماء والعيون أو كان عثريا العشر، وما سقي بالنضح نصف العشر»[1].

---

(١) البخاري الزكاة ١٤١٢، الترمذي الزكاة ٦٤٠، النسائي الزكاة ٢٤٨٨، أبو داود الزكاة ١٥٩٦، ابن ماجه الزكاة ١٨١٧ .

إن مثل هذه الشروط والأوصاف للزكاة تجعل صاحب المال يسارع إلى إخراج زكاة ماله عن طيب نفس، دون ضجر أو ملل أو تثاقل.

هـ - في الصيام:

*** ويمكن سرد بعض صور التيسير في فرضية الصيام من خلال بيان النقاط الآتية:**

- إن الصيام لم يفرض إلا في شهر واحد من السنة وهو شهر رمضان، لقوله تعالى: ﴿أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة:١٨٦].

وهذا تيسير وسعة في زمن هذا الفرض، يستطيع المؤمن أداءه بصورة مقبولة من غير عنت ولا مشقة.

- إن وقت الصيام من الفجر إلى غروب الشمس، ولا يجوز الزيادة في هذا الوقت، من أجل ذلك نهي عن صوم الوصال وهو وصل صيام يومين أو ثلاثة متتاليات، لما في ذلك من مشقة وعنت على النفس، وخطورة على الإنسان، يقول عليه الصلاة والسلام: «لا وصال»[1] يعني في الصوم.

- من أفطر خطأً أو ناسياً فإنه يكمل صومه، ولا حرج عليه، فإنما أطعمه الله وسقاه، يقول عليه الصلاة والسلام: «من أكل ناسياً وهو صائم فليتم صومه فإنما أطعمه الله وسقاه».[2]

---

(١) البخاري الصوم ١٨٦٢، أبو داود الصوم ٢٣٦١، أحمد ٣/ ٦٢، الدارمي الصوم ١٧٠٥ .

(٢) البخاري الأيمان والنذور ٦٢٩٢، مسلم الصيام ١١٥٥، الترمذي الصوم ٧٢١، أبو داود الصوم ٢٣٩٨، ابن ماجه الصيام ١٦٧٣، أحمد ٢ / ٤٩١، الدارمي الصوم ١٧٢٦ .

- جواز الإفطار عند السفر أو المرض، لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥].

- إن من لم يستطع الصوم يقضي أو يطعم إن لم يستطع القضاء.

و - في الحج:

*** تتضح صور السماحة في الحج من خلال النقاط الآتية:**

- الاستطاعة في الزاد والراحلة، وأن لا يكون عليه دين أو التزام مالي آخر من حقوق الآخرين، لقوله تعالى: ﴿وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: ٩٧].

- وجوبه في العمر مرة واحدة، لأن فيه المشقة والعناء، فيصعب على المؤمن أن يؤديه كل عام، يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:(أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا، فقال رجل: أكلَّ عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم، ثم قال: ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»[1].

---

(١) البخاري الاعتصام بالكتاب والسنة ٦٨٥٨، مسلم الحج ١٣٣٧، الترمذي العلم ٢٦٧٩.

- التخيير بين المناسك الثلاثة: التمتع، والقران، والإفراد.

- التخيير في الترتيب بين الأعمال الثلاثة يوم العيد، الرمي والحلق والطواف، وهذا فيه تيسير على الحاج الذي يعاني من زحمة الناس والمواصلات والأسفار، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم زرت قبل أن أرمي، قال: لا حرج. قال آخر: حلقت قبل أن أذبح قال: لا حرج. قال آخر: ذبحت قبل أن أرمي، قال: لا حرج».[1]

ويقول عبد الله بن عمرو بن العاص[2] - رضي الله عنهما - في رواية مسلم: «فما رأيته صلى الله عليه وسلم سئل يومئذ عن شيء إلا قال افعلوا ولا حرج»[3].

---

(١) البخاري الأيمان والنذور ٦٢٨٩، مسلم الحج ١٣٠٧، النسائي مناسك الحج ٣٠٦٧، أبو داود المناسك ١٩٨٣، ابن ماجه المناسك ٣٠٥٠، أحمد ٢٩١.

(٢) عبد الله بن عمرو بن العاص، من قريش: صحابي، من النساك. من أهل مكة. كان يكتب في الجاهلية، ويحسن السريانية. وأسلم قبل أبيه. فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أن يكتب ما يسمع منه، فأذن له. وكان كثير العبادة حتى قال له النبي صلى الله عليه وسلم: إن لجسدك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لعينيك عليك حقاً الحديث. وكان يشهد الحروب والغزوات. ويضرب بسيفين. وحمل راية أبيه يوم اليرموك. وشهد صفين مع معاوية. وولاه معاوية الكوفة مدة قصيرة. ولما ولي مزيد امتنع عبد الله من بيعته، وانزوى في إحدى الروايات بجهة عسقلان، منقطعاً للعبادة. وعمي في آخر حياته توفي سنة ٦٥هـ. واختلفوا في مكان وفاته. له ٧٠٠ حديث. والإصابة، الترجمة ٤٨٣٨ وحلية الأولياء: ١/ ٢٨٣ والجمع بين رجال الصحيحين: ٢٣٩ وصفة الصفوة: ١/ ٢٧٠.

(٣) البخاري الأيمان والنذور ٦٢٨٨، مسلم الحج ١٣٠٦، الترمذي الحج ٩١٦، أبو داود المناسك ٢٠١٤، ابن ماجه المناسك ٣٠٥١، أحمد ٢ / ٢١٧، مالك الحج ٩٥٩.

- كل خلل في واجبات الحج من غير قصد يجبر بفدية، وحجه صحيح إذا كان القصور من هذا الوجه فقط.

- ومن اليسر والسماحة في هذا الركن المبارك، أن الله - تعالى - جعله سببًا لمغفرة الذنوب والخطايا، وقد وعد الرسول صلى الله عليه وسلم الحاج بالجنة وأنه يرجع كيوم ولدته أمه، وصفحته بيضاء ناصعة خالية من السيئات والذنوب: «من حجّ هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»(١).

ويقول أيضاً: «الحج المبرور ليس له جزاء إلّا الجنة»(٢).

وقد جعله الله -تعالى- من الأعمال الفاضلة التي تلي الإيمان بالله والجهاد في سبيله، فقد «سئل النبي صلى الله عليه وسلم أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله». قيل: ثم ماذا؟. قال: «ثم جهاد في سبيل الله». قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور»(٣).

- **مجالات الوسطية في الإسلام في المعاملات:**

لم يقتصر التيسير في الإسلام على العقيدة والعبادة بل تعداه إلى المعاملات التي تأخذ مساحة واسعة من حياة الإنسان العملية، فالتجارة والصناعة والزراعة والتعليم

---

(١) البخاري الحج ١٧٢٤، مسلم الحج ١٣٥٠، الترمذي الحج ٨١١، النسائي مناسك الحج ٢٦٢٧، ابن ماجه المناسك ٢٨٨٩، أحمد ٢ / ٢٤٨، الدارمي المناسك ١٧٩٦ .

(٢) البخاري الحج ١٦٨٣، مسلم الحج ١٣٤٩، الترمذي الحج ٩٣٣، النسائي مناسك الحج ٢٦٢٩، ابن ماجه المناسك ٢٨٨٨، مالك الحج ٧٧٦ .

(٣) البخاري الحج ١٤٤٧، مسلم الإيمان ٨٣، الترمذي فضائل الجهاد ١٦٥٨، النسائي الجهاد ٣١٣٠، الدارمي الجهاد ٢٣٩٣ .

وغيرها، يدخل جميعها تحت مظلة المعاملات، والناس في المعاملات أكثر عرضة للمعاصي والآثام، لأن المحرك لها هو المال، ومعلوم مدى تأثير المال في نفس الإنسان وطباعه وسلوكه، لذلك كانت النصوص القرآنية والنبوية تترى في اتباع التيسير والمسامحة في المعاملات، يقول عليه الصلاة والسلام: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى»[1].

ويقول أيضاً: «من أقال مسلما أقال الله عثرته يوم القيامة»[2].

*** ويمكن بيان بعض صور التيسير في المعاملات من خلال المحاور الآتية:**

أ - ففي البيع أجاز الإسلام للمتبايعين الخيار في عدد من المواضع كما إذا كانا في مجلس البيع، رفعاً للحرج الذي قد يقع فيه أحدهما، لأنه ربما يحصل ضرر كبير إذا تم هذا العقد، يقول عليه الصلاة والسلام: «إذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا وكانا جميعا أو يخير أحدهما الآخر فتبايعا على ذلك فقد وجب البيع، وإن تفرقا بعد أن يتبايعا ولم يترك واحد منهما البيع فقد وجب البيع»[3].

ب - ثم إن هذا الدِّين حرم الربا الذي فيه ظلم للناس واستغلال لظروفهم، وسبب في إفشاء الفقر والغنى الفاحشين، وسبب لزرع الأحقاد والضغائن بين أبناء

---

(١) البخاري البيوع ١٩٧٠، الترمذي البيوع ١٣٢٠، ابن ماجه التجارات ٢٢٠٣، أحمد ٣٤٠ .

(٢) سنن ابن ماجه، رقم٢١٩٩، ص ٣١٥، ورواه أبو داود في سننه برقم٣٤٦٠، ص ٥٠٠ رجاله ثقات.

(٣) البخاري البيوع ٢٠٠٦، مسلم البيوع ١٥٣١، الترمذي البيوع ١٢٤٥، النسائي البيوع ٤٤٧٢، أبو داود البيوع ٣٤٥٤، أحمد ٢ / ١١٩، مالك البيوع ١٣٧٤ .

المجتمع الواحد، فحرم الله الربا وأباح القرض الحسن، يقول الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]. ويقول جل ثناؤه: ﴿وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ [المزمل: ٢٠].

ج - كما حرم هذا الدين احتكار الطعام والسلع واحتجازها في وقت تشتد حاجة الناس إليها، يقول عليه الصلاة والسلام: «لا يحتكر إلا خاطئ»(١).

ويقول عليه الصلاة والسلام: «من دخل في شيء من أسعار المسلمين ليغليه عليهم فإن حقا على الله -تبارك وتعالى- أن يقعده بعظم من النار يوم القيامة»(٢).

د - التيسير على المدين المعسر: وهو مبدأ عظيم جاء به الإسلام، رحمة بحاله وتقديرًا لظروفه القاسية، وهو عنصر قوي من عناصر التكافل الاجتماعي بين أبناء الأمة، حيث يجعل من المجتمع وحدة متينة، قائمة على الحب والوئام، والتعاون والتراحم، وهو تطبيق عملي لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

إن هذا المبدأ المبارك في التيسير على المدين المعسر يفتقده العالم المعاصر في ظل هذا التطور الحضاري الهائل، ومع وجود الجمعيات العالمية الكبرى التي تعنى بشؤون الإنسان وحرياته وحقوقه، وهو وصية الرسول عليه الصلاة والسلام منذ أربعة عشر

---

(١) مسلم المساقاة ١٦٠٥، الترمذي البيوع ١٢٦٧، أبو داود البيوع ٣٤٤٧، ابن ماجه التجارات ٢١٥٤، أحمد ٦ / ٤٠٠، الدارمي البيوع ٢٥٤٣ .

(٢) مسند الإمام أحمد، رقم ٢٠٥٧٩، ص ١٤٨٧ رواته ثقات.

قرناً لأصحابه وللأمة من بعدهم في قوله: «من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه»[1].

ويقول عليه الصلاة والسلام في قصة رجل من الأمم السابقة كان يتجاوز عن المعسرين: «كان تاجر يداين الناس فإذا رأى معسراً قال لفتيانه تجاوزوا عنه لعل الله أن يتجاوز عنا فتجاوز الله عنه»[2].

- **مجالات الوسطية في الإسلام في العقوبات:**

لقد تميزت الشريعة الإسلامية عن غيرها من الشرائع والقوانين في التشريع الجنائي ووضع العقوبات المناسبة لأفعال الناس التي تضر بالأنفس والأموال والأعراض وغيرها، حيث أضفت الشريعة على هذه العقوبات ألوانًا من السماحة واليسر، بحيث تتقبلها النفس الإنسانية في كل أحوالها بل تطالب بها إذا وقعت مثل تلك الأفعال، ويمكن أن نبين هذه السماحة والسعة من خلال بيان عقوبتين فقط، وهما:

أ - عقوبة قتل النفس:

إن قتل النفس بغير حق يعد من أكبر الجرائم وأعظمها عند الله تعالى، يقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:١٥١].

---

(١) مسلم المساقاة ١٥٦٣، أحمد ٥ / ٣٠٨، الدارمي البيوع ٢٥٨٩ .

(٢) البخاري البيوع ١٩٧٢، مسلم المساقاة ١٥٦٢، النسائي البيوع ٤٦٩٤، أحمد ٣٦١ .

وقد جعل الله -تعالى- قتل النفس الواحدة بمثابة قتل الناس جميعاً، وإحياء نفس بمثابة إحياء لجميع الناس، يقول الله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾ [المائدة:٣٢].

ويقول عليه الصلاة والسلام: «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم»(١).

فقتل النفس فعل شنيع وجريمة عظيمة، لا بد أن يكون له عقاب يتناسب مع هذا الجرم والفعل، فكان حكم الله القتل مقابل القتل، لقوله عز وجل: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥].

* ويظهر يسر الإسلام وسماحته في تطبيق العقوبة على القاتل من خلال النقاط الآتية:

- لا يؤخذ أحد بجريرة أحد، أي أنه لا يعاقب إلا القاتل نفسه، وليس لأهله وذويه وقبيلته شأن في فعله وتطبيق العقوبة عليه، بدون تعسف أو تعد، بخلاف ما كانت عليه الجاهلية، حيث كانت تنشب حروب وتنتهك أعراض، ويقتل بالرجل أكثر من الواحد، كلها بسبب جريمة قتل وقعت لأحد أفرادهم، لقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾ [الإسراء: ٣٣].

---

(١) سنن النسائي، رقم٣٩٩٢، ص ٥٥٧ . ورواه الترمذي في جامعه برقم١٣٩٥، ص٣٣٨، وابن ماجه في سننه برقم٢٦١٩، ص ٣٧٦ ورجاله ثقات.

- إن من يسر الإسلام وسماحته أن جعل المجال مفتوحاً أمام ولي أمر المقتول وخيره بين إحدى ثلاث: القصاص أو الدية أو العفو، لقوله صلى الله عليه وسلم: «من أصيب بدم أو خبل (الخبل الجراح) فهو بالخيار بين إحدى ثلاث: إما أن يقتص أو يأخذ العقل أو يعفو، فإن أراد رابعة فخذوا على يديه فإن فعل شيئاً من ذلك ثم عدا بعد فقتل فله النار خالداً فيها مخلداً»(١).

- ومن يسر الإسلام أيضاً وسماحته قبل تطبيق هذه العقوبة أنه يغري أهل المقتول بما عند الله تعالى، إذا تجاوزوا عن القاتل وعفواً عنه، لقوله صلى الله عليه وسلم: «ما عفا رجل إلا زاده الله به عزاً ولا نقصت صدقة من مال ولا عفا رجل قط إلا زاده الله عزاً»(٢).

وكان هذا شأن السلف الصالح من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم، فقد روي أن رجلاً من قريش كسر سن رجل من الأنصار فاستعدى عليه معاوية فقال القرشي: إن هذا دق سني. قال معاوية: كلا إنا سنرضيه. قال فلما ألح عليه الأنصاري قال معاوية شأنك بصاحبك، وأبو الدرداء جالس فقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما من مسلم يصاب بشيء في جسده فيتصدق به إلا رفعه

---

(١) مسند أحمد، رقم١٦٤٨٩، ص ١١٦٤. ورواه ابن ماجه في سننه برقم٢٦٢٣، ص ٢٧٧ رواته ثقات.

(٢) مسلم البر والصلة والآداب ٢٥٨٨، الترمذي البر والصلة ٢٠٢٩، أحمد ٢/ ٤٣٨، مالك الجامع ١٨٨٥، الدارمي الزكاة ١٦٧٦.

الله به درجة وحط عنه بها خطيئة» قال فقال الأنصاري: أأنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟. قال: نعم سمعته أذناي ووعاه قلبي يعني فعفا عنه[1].

- من سماحة الإسلام ويسره أنه اشترط في جواز تطبيق القصاص اتفاق أولياء الدم جميعا على هذا القصاص، فإذا وُجد من بينهم من عفا عن القاتل وإن كانت امرأة فإن الحكم يسقط، ويمنع القصاص.

وكذلك إذا كان من بين أولياء الدم من لم يبلغ سن التمييز أو كان غائباً، فإنه ينتظر بلوغه أو عودته من غيبته لأخذ رأيه، فإن عفا عن الجاني فإن الحكم يسقط، وقد يأخذ ذلك سنينًا وأعوامًا، وفي ذلك حكمة ربما ينسى هؤلاء الأولياء حنقهم على دمهم وتتخفف الوطأة عليهم، فيكون العفو حينها أقرب إلى القصاص.

ب - عقوبة الزنا:

وجريمة الزنا من الجرائم الأخلاقية التي تفسد الأسر والمجتمعات وتضيع الأنساب وتفشي الضغائن والأحقاد، لذلك كانت هذه الجريمة من الكبائر التي توعد الله فاعلها بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

---

(١) مسند أحمد، رقم٢٨٠٨٤ ، ص ٢٠٥٥ . ورواه الترمذي في جامعه به ذا المعنى برقم١٣٩٣ ، ص ٣٣٧ – ٣٣٨ وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وعقوبة الزاني الرجم للمحصن والجلد لغير المحصن، وفي هذا يسر وسماحة، وذلك بتناسب العقوبة مع طبيعة الزاني نفسه، فالزاني الثيب أعظم جرماً من الزاني غير المحصن، لذلك جاءت عقوبته أقسى وأشد وهي الرجم.

ومن يسر الإسلام وسماحته في إنفاذ العقوبة على الزاني أنه طلب شهادة أربعة أشخاص على الفاحشة، وهذا من باب التحري الزائد، وتجنباً لتطبيق العقوبة، وحتى لا يقع الناس في أعراض غيرهم، ليس هذا فحسب وإنما حدد عقوبة للذي يقذف الآخرين ويتهمهم بالزنا من غير أن يحضروا أربعة أشخاص فحينها ينال عقوبة القذف، يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

ومن أجل إقرار هذا المبدأ لدى الأمة كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحاول تجنب تطبيق حد الزاني، أو يوجد للمعترف بالزنا أعذاراً لعله يتراجع عن اعترافه، فقد «أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد فناداه فقال: يا رسول الله، إني زنيت. فأعرض عنه حتى ردد عليه أربع مرات فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أبك جنون ؟. قال: لا. قال: فهل أحصنت ؟ قال: نعم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اذهبوا به فارجموه. قال ابن شهاب[1]: فأخبرني من

---

(١) الزهري: محمد بن مسلم بن عبد الله ابن شهاب الزهري، من بني زهرة بن كلاب، من قريش، أبو بكر: أول من دون الحديث، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء. تابعي، من أهل المدينة. كان يحفظ ألفين ومئتي حديث، نصفها مسند. وعن أبي الزناد: كنا نطوف مع الزهري ومعه الألواح والصحف ويكتب كل ما يسمع. نزل الشام واستقر بها. وكتب عمر بن عبد العزيز =

سمع جابر بن عبد الله. قال: فكنت فيمن رجمه فرجمناه بالمصلى فلما أذلقته الحجارة هرب فأدركناه بالحرة فرجمناه»[1].

وقد عمل الإسلام على تخفيف وقوع الزنا ومحاولة الستر على مرتكبها، وأن تتم التوبة بينه وبين الله تعالى، فالأمر يرجع إلى الله تعالى يوم القيامة إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه.

- **مجالات الوسطية في الإسلام في الأخلاق والسلوك:**

وفي مجال الأخلاق والسلوك مظهرٌ من مظاهر الوسطية في هذا الدين، بين الجنوح إلى المثالية والواقعية، وسطيةٌ تُزكي المشاعر، وتُهذّب الضمائر، وتسمو بالتفكير والشعور، وتوازن بين متطلبات الفرد والمجتمع، وإعمال العقل والعاطفة، في تربية متوازنة، وتنسيق متَّسق بديع، على ضوء المنهج النبوي: «إن لنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، ولجسدك عليك حقاً، ولربك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه»[2].

= إلى عماله: عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أحدا أعلم بالسنة الماضية منه. قال ابن الجزري: مات بشغب، آخر حد الحجاز وأول حد فلسطين سنة ١٢٤هـ. تذكرة الحفاظ: ١/ ١٠٢ ووفيات الأعيان: ١/ ٤٥١ وتهذيب التهذيب: ٩/ ٤٤٥.

(١) البخاري الحدود ٦٤٣٠، مسلم الحدود ١٦٩١، الترمذي الحدود ١٤٢٨، النسائي الجنائز ١٩٥٦، أبو داود الحدود ٤٤٢٨، أحمد٤٥٣ .

(٢) أخرجه البخاري في الصيام، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ولم ير عليه قضاء، برقم(١٨٦٧).

■ **مجالات الوسطية في الإسلام في الاقتصاد:**

وفي النظام الاقتصادي وازن الإسلام بين حرية الفرد والمجتمع، فيحترم الملكية الفردية ويقرها ويهذبها بحيث لا تضر بمصلحة المجتمع، فجاء الإسلام وسطاً بين رأسمالية ترعى الفرد على حساب الجماعة، واشتراكية تلغي حقوق الأفراد وتملُّكَهم بحجة مصلحة الجماعة.

وفي مجال الإنفاق تتحقق الوسطية في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً﴾ [الفرقان:٦٧].

قال حذيفة بن اليمان[1] رضي الله عنه: (هو الحسنة بين سيئتين)، والمراد أن الإسراف سيئة والتقتير سيئة والحسنة ما بين ذلك، فخير الأمور أوسطها.

---

(١) حذيفة بن اليمان: حذيفة بن حسل بن جابر العبسي، أبو عبد الله- واليمان لقب حسل- صحابي، من الولاة الشجعان الفاتحين. كان صاحب سر النبي صلى الله عليه وسلم في المنافقين، لم يعلمهم أحد غيره. ولما ولي عمر سأله: أفي عمالي أحد من المنافقين ؟ فقال: نعم، واحد. قال: من هو ؟ قال: لا أذكره. وحدث حذيفة بهذا الحديث بعد حين فقال: وقد عزله عمر كأنما دل عليه. وكان عمر إذا مات ميت يسأل عن حذيفة، فإن حضر الصلاة عليه صلى عليه عمر، وإلا لم يصل عليه. وولاه عمر على المدائن بفارس وكانت عادته إذا استعمل عاملا كتب في عهده وقد بعثت فلانا وأمرته بكذا فلما استعمل حذيفة كتب في عهده اسمعوا له وأطيعوه، وأعطوه ما سألكم فلما قدم المدائن استقبله الدهاقين، فقرأ عهده. فقالوا: سلنا ما شئت، فطلب ما يكفيه من القوت. وأقام بينهم فأصلح بلادهم ومات فيها سنة ٣٦هـ. ابن عساكر: ٤/ ٩٣ وتهذيب التهذيب: ٢/ ٢١٩ والإصابة: ١/ ٣١٧ وحلية الأولياء: ١/ ٢٧٠ وصفة الصفوة: ١/ ٢٤٩.

ولا تغـــل في شيء مـــن الأمـــر * كـــلا طـــرفي قصـــد الأمـــور ذمـــيم

وهكذا في مجال الحرية بين الفرد والمجتمع، حرية الرأي والفكر والسلوك وغيرهـا، جعل الإسلام ضوابط شرعية لهذه الحرية بحيث تكـون ضـمن دائـرة المشروع ومجانبـة المحذور الممنوع(١).

جاء الإسلام وسطاً بين النظم، مبيِّناً حقوق الراعي والرعيـة، حاضـاً عـلى العـدل والقسط، مُعلياً قيم الحق والأمن والسلام والسمع والطاعة بالمعروف، مترسـماً المـنهج الشورى المتكامل، سابقاً شـعارات الـديمقراطيات المعـاصرة إلى تحقيـق منـافع الـبلاد والعباد، في بعدٍ عن الاضطراب والفوضى، محاذراً الدكتاتورية في الحكم والاسـتبداد في الرأي، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ [آل عمران:١٥٩].

ومما يجلّي وسطية الإسلام جمعُه بين الأصـالة والمعـاصرة، تميّـزُه بالثبـات والمرونـة، وحسن التعامل مـع المتغـيرات، ووضـع الضـوابط للاجتهـاد في النـوازل واسـتيعاب المستجدات، فهو بثوابته وأصوله يستعصي على التميـع والـذوبان، وبمرونتـه يسـتطيع التكيف ويواجه التطور بلا جمود ولا تحجـر، بـل يبنـي الحيـاة عـلى القواعـد الشرعيـة والنواميس المرعية التي تستجيب لحاجات الأمة في مختلف الظروف والأحوال، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠].

وبعد: فقصارى القول أن وسطية الإسلام شاملة جامعة لكل أمور الـدين والـدنيا والآخرة، بل إنها وجه من وجوه الإعجاز فيه وصلاحيته لكـل زمـان ومكـان، وهـذه

---

(١) الإسلام وتربية الإنسان القيادي، عبد الرحيم عجاف، ص ١٩٣.

الوسطية تُعْظِم مسؤولية الأمة الإسلامية ودورَها العالمي، فهي أمة الوسطية والشهادة على الناس ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣]، شهادةً تُصان فيها الحقوق، وتتحقق العدالة، وتُحفظ الكرامة، ويُبسط السلام، وتُبنى الحضارة المعاصرة، بعد أن شقي العالم بألوان الصراعات، وأُنهكت البشرية بأنواع من الصدامات، وتقاذفت الإنسانية أمواج من الأنظمة والأهواء، ومُزقت كياناتها في رحلة منهكة من الضياع، وهوةٍ سحيقة من الفناء، وبُؤر عميقة من التيه والعدم، وذلك بسبب ألوان من الصلف والتطرف والآحادية في الرأي والشطط في الرؤى والمواقف، ولئن آل حال العالم إلى ما نراه اليوم من تسلط وصراع حضاري خطير فإن الأمل -بعد الله- في أمة الوسطية والاعتدال أن تكبو من عثرتها وتفيق من غفلتها وتجمع من شتاتها، بعد أن عانت طويلاً من جراء تجاوزات بعض أبنائها والمحسوبين عليها عن منهج الوسطية في مجالات عقدية وفكرية وسلوكية، بل وثقافية وإعلامية، وأصبح بعض أبنائها يقتات من على فتات موائد الغرب في لون من ألوان التطرف الفكري، يقابله ردود أفعال مخالفةٌ في الرأي، معاكسة في الاتجاه، فلربما سلكت مسالك التجاوز والشطط في تضخيم إعلامي مفضوح، حتى وُصم الإسلام بأخطاء هذا، وتقصير ذاك، ومن المقرر لدى النَّصفة أن خطأ الفرد في تطبيق نظامٍ ما ليس عيباً في النظام نفسه، فأين المصداقية والموضوعية والواقعية؟![1]

هذا هو الإسلام في وسطيته وسماحته ويسره واعتداله، فأين هذا من الحملات المسعورة عبر وسائل إعلامية مأجورة؟!

---

(١) صراع الحضارات بين الشرق والغرب، رينيه غونو، ترجمة وليد القاسم بن علي، ص٥٧.

أين هذه السماحة من التطرف الصهيوني والصلف اليهودي الذي يبرز من خلال شلالات الدم المسلم المتدفق على ثرى فلسطين المجاهدة؟!

أين هذه السماحة من التطرف الهندوسي الوثني على رُبا كشمير في ظل صمت عالمي متخاذل؟! أين هذا التيسير من التطرف الإلحادي على أرض كُسوفا والشيشان المسلمة؟!

أين هذا من المتلاعبين بالمصطلحات والألفاظ الذين أصبح عندهم المتطرف في قتل المسلمين وظلمهم وإرهابهم رجلَ أمن وسلام، والمظلومون المطالِبون بحقوقهم الشرعية المقاومون للاحتلال ضد عقيدتهم وبلادهم ومن يساندهم في حملات إغاثية وتبرعات مادية وعينية إنَّ هؤلاء في نظرهم إرهابيون متطرفون في شنشنة معروفة من أخزم.

ألا ما أحوج الأمة إلى سلوك منهج الوسطية في علاج كثير من الانحرافات في شتى المجالات، وهذا كله يلقي على كواهل علماء الشريعة ودعاة الإصلاح في الأمة المسؤولية الكبرى أمام الله، ثم أمام الأمة والأجيال التي تنشد سبيل الخلاص من إفرازات تجاوز منهج الوسطية المتألّق، وكان الله في عون العاملين المخلصين لدينهم وأمتهم ومجتمعاتهم.

﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّـٰكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ولم تقف وسطية الإسلام على أمور العبادات من طهارة وصلاة ونحوها فحسب، بل تعدتها إلى العادات والمعاملات واللباس والطعام والنوم وغيرها في تنظيم شامل لشتى مناحي الحياة.

وثمّتَ مجال آخر برزت فيه وسطية هذه الأمة في جانب من أهم جوانبها، ألا وهو الجانب المتعلق بالمرأة، (فجاءت هذه الشريعة الغراء والمرأة مظلومة بين جاهليتين، فكرمتها وحفظت حقوقها، وسمت بها أن تكون أجيرة، وصانتها من الوقوع في مستنقعات الرذيلة، وكفلت لها حريتها الشرعية، ونأت بها عن مسالك التحرر من القيم والهبوط إلى براثن الإباحية والانحلال والانسلاخ من الفضائل وسلوك مسالك التبرج والسفور والاختلاط المحرم)[1].

غير أن ثمت ملحظاً أخيراً مهماً، وهو أن الوسطية في الإسلام لا تخضع للأهواء والرغبات، فليست تنصُّلاً من الثوابت والمقومات، ولا تمرداً على المبادئ والأهداف والغايات، وإنما تُضبط بضوابط الشريعة، فمن الناس من يحمل على كل ملتزم بدينه - لا سيما من أهل الخير والحسبة والإصلاح- ويصفهم بالتطرف والغلو والتزمت، فمن يلتزم بالسنة باطناً وظاهراً عندهم متحجر متشدد، ومن يدعو إلى الإسلام غالٍ متطرف، والغيورون عليه رجعيون متأخرون، أما المنهزمون المنفلتون من المُثل المفرطون بالقيم المتلاعبون بالثوابت والمبادئ فهؤلاء عندهم متمتعون بسعة الأفق متحررون متنورون متطورون متفتحون على الآفاق المعاصرة واقعيون في النظر والسلوك، ولعمرو الحق إن هذا نوع من التطرف المحموم والفكر المسموم في مقابل نوع غير متكافئ من التطرف المذموم، مما يحمل طلاب الوسطية على الاعتدال بين ذينك الطرفين.

---

(١) مكانة المرأة في الإسلام، الهادي بن ياسين الغارمي، ص ١٢٣.

* وختاماً لا بد أن نقول:

إن الوسطية الإسلامية يجب أن تتحول إلى مؤسسات فكرية تربوية ذات مناهج علمية محكمة تهدف إلى صياغة المسلم صياغة تحقق التغيير النفسي الداخلي المشروط في القرآن الكريم ليتحقق التغيير الخارجي: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]، ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح: ٢٣].

وقبل أن نطالب الآخرين أن يتغيروا يجب أن نتغير نحن لكن وفق ما نطمح إليه من ضبط الداخل والخارج حسب مقاصد الشريعة السامية وحقائقها الخالدة. إن المهمة الملحة هي إعداد النفوس لعملية التغير والتغيير الداخليين لصيانة الذات وتحصينها، وحينئذ نكون قد تجاوزنا دركات النفس الأمارة حتى تترسخ في النفوس تلك الدوافع النبيلة والنوازع الخيْرية فتنضبط حركةً نحو الخير وسكونا عن الشر، وتنصهر حتى تصبح روحاً واحدة وجسداً واحداً في اتجاه البناء الجديد كأن الجميع نفس واحدة، وإنسان الظالم لنفسه إلى الارتقاء في الشروع في السير خلال النفس اللوامة التي تمثل المسلم المقتصد حتى نحقق الاستقرار على طريق المسيرة في مدارج النفس المطمئنة أو المسلم السابق بالخيرات بإذن الله.

فكلما توافرت للأمة النسبة العالية للنوع الثالث استطاعت أن تأخذ مكانتها المحترمة بين أمم العالم، ولعل هذا ما يعنيه القرآن الكريم والله أعلم بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر:٣٢].

فالنوع الثالث أكرمه الله بتربية عالية تجعل حسناته ترجح سيئاته، وهو من النوع الذي يقضي حقوق الآخرين دون أن يقتضي حقوقه ممن هضمه إياها، فهو إنسان تضحية ونكران الذات، وهمه أن تكون أمته قائدة رائدة فلا يحاسبها على ساعة العمل، فهو يعطي أكثر مما يأخذ.

ولا ضير أن يكون بجانبه الإنسان المقتصد، الذي يقوم بواجباته قدر ما يأخذ من حقوقه.

ولكن النوع الظالم لنفسه هو المثبط والمتثبط فإن ارتفاع نسبته في الأمة يؤذن بالتأخر والتخلف وربما بالسقوط. يقول مالك بن نبي[1] -رحمه الله- في كتبه وأحاديثه: (إن الرقي والتقدم لا يتحقق إلا في مجتمع يتوافر فيه فائض الواجبات) ويضرب مثلاً بألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية[2].

---

(١) مالك بن نبي: مفكر إسلامي جزائري. ولد بها في مدينة قسنطينة. ودرس القضاء في المعهد الإسلامي المختلط . وتخرج مهندساً ميكانيكياً في معهد الهندسة العالي بباريز. وزار مكة، وأقام في القاهرة سبع سنوات أصدر فيها معظم آثاره. باللغة الفرنسية نحو ٣٠ كتاباً جلها مطبوع . ترجم بعضها إلى العربية. وكان من أعضاء مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة. وتولى إدارة التعليم العالي بوزارة الثقافة والإرشاد القومي الجزائري(١٩٦٤).وتوفي ببلده، سنة(١٣٩٣هـ). الوعي الإسلامي السنة الثامنة العدد ١٠٨ و ٧٢ من مقال بقلم أنور الجندي . وجريدة الحياة(البيروتية) ٢ / ١١ / ١٩٧٣.

(٢) الإسلام الذي نريد، مقال في صحيفة اللوموند الفرنسية، ترجمه إلى العربية عبد الحميد قتابي، العدد ١٣ سبتمبر، ١٩٨٠م.

ولكي نحقق ذلك يجب إسناد الأمر إلى ذويه وأهله من رجال التربية والسلوك والقدوة الحسنة الذين تتوافر فيهم شروط، العلم وأعني به علم الشرع وعلم الواقع أي المجال الذي يعمل فيه. والحكمة: وهي الخبرة العميقة التي تجعله قادرا على التعامل بأحسن الأساليب وأنجح الوسائل وأنسب الآليات وأجمل فنون الاتصال لنقل فكرته وتفهيمها بوضوح ودقة مع حسن التأثير والتجاوب وتحقيق أحسن النتائج، بما يضاف إليها من الصفة الحسنة والجدل بالتي هي أحسن، ولم توصف الحكمة بأحد الوصفين المذكورين لأنها الأحسن في ذاتها لا تحتاج إلى وصف زائد[1].

ولعل البصيرة تجمع العلم والحكمة ثم الورع والصلاح ليكون الداعية قدوة مؤثرة بالسلوك والعمل.

إن الثروة البشرية العالمة والعاملة في ميدان الدعوة إلى الإسلام داخل البلاد وخارجها كبيرة وكثيرة ومتنوعة وغنية وفي المستويات اللائقة، لكن عليها أن تتناسق وتتعاون فيما بينها قبل فوات الأوان، وعليها أن تتعاون أيضا مع الدول الإسلامية وأنظمتها المختلفة ما أمكن لها ذلك وعلى الأقل أن تتجنب الصدام مع أولي الأمر ذلك أن الأمة كلها مهدَّدَة. فقد ظهر جليا أن كل توتر داخلي يشيع روح السخط والتبرم وسوء الظن خلال المجتمع ويجر إلى عواقب وخيمة قد تمتد إلى البنيات التحتية للإسلام والقواعد الراسخة في الأمة مما يجعلها طعمة سائغة للمؤامرات الخارجية بما يصيبها من وهن وتمزق.

---

(١) انظر طريق الهجرتين لابن القيم، ص ٢١٢ - ٢١٣، تحقيق الدكتور وهبة الزحيلي.

ولقد اعترف قادة من هنا ومن هناك بأن الأفعال من جانب وردودها من جانب آخر كانت الأمة هي الخاسرة في الأولى والأخيرة، بل لدينا روايات شفوية مؤكدة أن من الأخطاء الفادحة التعاونَ على تقويض بعض الأنظمة لفسادها أو بدعوى ذلك لما ترتب على تقويضها من فساد أكبر هو الذي نتجرع مرارته كل لحظة بعد أن كانت الأنظمة الثورية تمني شعوبا بالفردوس وبتطهير البلاد من الصهيونية وعملائها فإذا بهذه الشعوب في قعر الجحيم وسواء السعير تبكي على الماضي الصالح الذي كانت الأمة تتمتع فيه بكثير من الحقوق، وتعيش في مستوى معيشي وثقافي وسياسي واجتماعي وأخلاقي لم تصل في ظل الانقلابات وما بعدها حتى إلى ربعه.

إن وسطية الإسلام يجب أن نمثلها في سلوكنا وأفكارنا وتعاملنا فيما بيننا أولا ثم ننقلها إلى الخارج لا من خلال الأفكار فقط ولكن من خلال السلوك.

ولو استطعنا أن نصل إلى قمم القيم الإسلامية وقمم الحقيقة الإسلامية واستطعنا أن ننزل إلى هضاب الحضارة الغربية المتعطشة فنرويها بالحقيقة الإسلامية وبالهدى الإسلامي لأضفنا إليها بعداً جديداً، (لأن الحضارة العلمانية، حضارة الصاروخ، حضارة الإلكترون اكتسبت هذه الأشياء وضيعت بعدا تشعر بفقدانه وهو بعد السماء)[1].

(١) دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، ص ٣٨، مالك بن نبي – دار الفكر – دمشق.

القواعد الشرعية المستنبطة من النصوص الواردة في اليسر

استنبط علماء الفقه من النصوص الواردة في سماحة الإسلام ويسره، بعض القواعد وجعلوها معالم لعلم القواعد الفقهية، **ونذكر منها قاعدتين أساسيتين، هما:**

١ - «المشقة تجلب التيسير»[١]:

ومعنى هذه القاعدة الفقهية أن الأحكام التي ينشأ عن تطبيقها حرج على المكلف ومشقة في نفسه أو ماله، فإن الشرع قد أجاز له عدم القيام بها.

وتعتمد هذه القاعدة الشرعية على الأدلة الكثيرة من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام التي سبقت الإشارة إليها خلال البحث[٢]، من خلال بيان يسر الإسلام وسعته ورحمته بالعباد في العبادات والمعاملات وإتيان الرخص وغيرها.

والمشقة التي تجيز فعل المحظور وتجلب التيسير تلك التي فوق طاقة البشر، فلا تتحملها النفس البشرية، وإذا أخذ بها الإنسان تعرض للأذى والضرر في أساسيات حياته من النفس والمال والعقل والعرض.

---

(١) ينظر في هذه القاعدة وتفاصيلها: الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، للسيوطي، ص ٧٦ – ٨٢ وغيره من كتب القواعد الفقهية.

(٢) منها على سبيل المثال لا الحصر، قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [سورة البقرة: ١٨٤]، وقوله لمن يسأله في الحج عن تقديم نسك على آخر: لا حرج وقوله عليه الصلاة والسلام: «ليس من البر الصوم في السفر»..

وانبثقت عن هذه القاعدة الفقهية قواعد فرعية أخرى مثل: (إذا ضاق الأمر اتسع)، أو (إذا اتسع الأمر ضاق)[1] وغيرهما.

٢ - «الضرورات تبيح المحظورات»[2]:

والأصل الذي اعتمدت عليه هذه القاعدة الفقهية قوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩].

ويلحق بهذه القاعدة قاعدة أخرى هي بمثابة ضابط وقيد لها، وهي: (الضرورات تقدر بقدرها)[3] أي أن المباح من فعل المحظورات يكون قدر حاجة الإنسان بحيث ينتفي الضرر الذي يهدده، فلا يتجاوز هذا القدر، وإلا وقع في المعصية، كالمقبل على الهلاك من العطش فلا يجوز له أن يشرب الخمر فوق ما يكسر عطشه ويخلصه من الموت، فإن فعل ذلك فإنه آثم ويتحمل وزر شرب الخمر.

---

(١) انظر: الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، للسيوطي، ص٨٣.

(٢) انظر: شرح القواعد الفقهية، لأحمد الزرقا، ص١٣١.

(٣) انظر: شرح القواعد الفقهية، لأحمد الزرقا، ص١٣٣ - ١٣٤.